

نماذج من شعر إبراهيم طوقان عبر المنهج التاريخي

د. علي شومان محمد علي أبودية

كلية العلوم والآداب ببلقرن/ جامعة بيشة/ المملكة العربية السعودية

Models of Ibrahim Touqan's Poetry through the Historical Approach

Dr. Ali Shoman Mohammad Ali Abudayah

College of Sciences & Arts, Balqarn\ University of Bisha, Kingdom\ Saudi Arabia

ali_shoman77@yahoo.com

Abstract

This research paper is a study of Ibrahim Touqan's poetry through the historical approach. Touqan is considered as the greatest Palestinian poet as he opened wide dimensions in front of poets in general and the Palestinian poets in particular. He is a bright writer and critic, a unique teacher, a journalist and radio announcer, and an astute author and poet. The paper starts with an introduction to the historical approach that is followed by a survey of Touqan's social life and environment as this serves the considered critical approach. Then I critically analyzed some models of Touqan's poetry using the historical approach. Maybe this approach is capable of revealing the aesthetics of Touqan's poetry as he transmitted to us through his poetry the conditions of his nation with its joys and sorrows, and events and incidents. Touqan's poetry is considered as a historical document that he wrote and lived its real events with his ardent patriotic conscience; he is the historian of the Palestinian cause in particular and the causes of his people in his wide Arab world.

Keywords: Ibrahim Touqan, historical approach, Palestine poet

المخلص

يتناول هذا البحث دراسة لشعر إبراهيم طوقان عبر المنهج التاريخي؛ حيث يعدُّ إبراهيم طوقان أكبر شعراء فلسطين كما أثبت ذلك البحث؛ فهو من فتح آفاقاً رحبة أمام الشعراء عامة، وشعراء فلسطين خاصة، إنه الأديب والناقد الأعمى والمعلم الفذ، والصحفي والإذاعي، والكاتب والشاعر البصير، وقد مهدت للدراسة بالتعريف بالمنهج التاريخي، ثم تطرقت لحياة طوقان وبيئته، وحياته الاجتماعية؛ لأن ذلك يخدم المنهج المتبع في الدراسة، ثم انتقلت نماذج من شعر طوقان وحللتها عبر المنهج التاريخي، ولعلَّ المنهج التاريخي هو القادر على استجلاء جماليات شعر إبراهيم؛ حيث إن طوقان نقل لنا بشعره أحوال وطنه بأفراحه وأحزانه، ووقائعه وأحداثه؛ إذ يعدُّ شعره وثيقة تاريخية، سطرها لنا من واقع أحداث عايشها بوجدانه الوطني المتوقد؛ فهو المؤرخ للقضية الفلسطينية على وجه الخصوص، ولقضايا أمته في وطنه العربي الرحب.

الكلمات المفتاحية: إبراهيم طوقان، المنهج التاريخي، شاعر فلسطين.

المقدمة

فنحن في هذا البحث نقف أمام علم شامخ من أعلام فلسطين، أمام شاعر قد امتزج حب فلسطين في دمه وعروقه؛ فصور لنا أحوال فلسطين بأفراحها وأحزانها، وكان المكافح العنيد، والمجاهد الصنديد، الذي وقف منافحاً عن قضيته وقضية شعبه؛ مناصراً للمقاومة، مدافعاً عن الحق، يساند وطنه في كل ما أوتي من قوة؛ فلم يثته مرضه عن القيام بواجبه نحو وطنه ودينه وعقيدته. إننا اليوم لنحیی ذكری هذا الشاعر الكبير، وهو حي في أذهننا برغم رحيله؛ لأن شعره ما زال يردد على الألسنة، وتطرب له الآذان والأسماع؛ فشعر إبراهيم نبراس يُحتذى به في مضمار المقاومة، ونموذج للجهاد، والإصرار على المبادئ دون أي تخاذل؛ فشعره رمز للعزة والإباء، في زمن الذل والانكسار.

ومن الدوافع التي دعنتي لاختيار المنهج التاريخي؛ أن هذا المنهج يرتبط بالأحداث التي وقعت في تلك الحقبة الزمنية؛ فالشعر كما قيل في القديم (ديوان العرب)، والشعر مرآة العصر، وإبراهيم طوقان خير من مثل مأساة شعبه في شعره.

الدراسات السابقة

بعد البحث والتقيب عثرت على هذه الدراسات التي تناولت شعر إبراهيم طوقان، وهي بهذه العناوين:

- 1- أخي إبراهيم: (لقوى طوقان)، صدر ب (يافا) عام 1946م.
- 2- شاعران معاصران: طوقان، والشابي: (لعمر فروخ).
- 3- الساخر والجسد: للمتوكل طه، (1994)
- 4- إبراهيم شاعر الوطن المغصوب: (زكي المحاسني/ القاهرة).
- 5- ثلاثة كتب عن الشاعر: من تأليف يعقوب العودات (البدوي المثلث)
- 6- (حدائق إبراهيم): للمتوكل طه.
- 7- شاعران من جبل النار: إبراهيم طوقان وعبد الرحيم محمود: وليد جرار.
- 8- الأديب إبراهيم طوقان: لغالب عنابسة، موسوعة أبحاث ودراسات في الأدب الفلسطيني.
- 9- إبراهيم طوقان - حياته، ودراسة فنية في شعره: محمد حسن عبد الله، الناشر: مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري. (2002)
- 10- إبراهيم طوقان - حياته وشعره: يوسف علي الطريفي، الأهلية للنشر والتوزيع، 2008م.
- 11- إبراهيم طوقان - دراسة جديدة ومختارات: يوسف بكار، بيروت الفكر العربي، 2007م.
- 12- السخرية في شعر إبراهيم طوقان: سيد مرتضى حسني، جامعة أصفهان، (1992).
- 13- حنا أبو حنا، ثلاثة شعراء: إبراهيم طوقان، عبد الرحيم محمود، عبد الكريم الكرمي: منشورات مجلة مواقف، 1995، (52-61).
- 14- الشهيد في شعر إبراهيم طوقان، وأبي سلمى، وعبد الرحيم محمود: عادل أبو عمشة، المجلد 14، (59-74)، (1995م).
- 15- الوطن في شعر إبراهيم طوقان: عاد الأسطة، مجلة جامعة النجاح، عدد 10، مجلد 3، (81-108)، (1996).
- 16- التعجب في شعر إبراهيم طوقان - دراسة نحوية تحليلية نقدية بأبعادها الفنية والاجتماعية: د. محمد مصطفى القطاوي، مجلة جامعة أم القرى 1436/2/20هـ.
- 17- الشعر الوطني والغزلي في شعر إبراهيم طوقان - دراسة صوتية دلالية: ميسر صبري محمد أبو جبل، رسالة ماجستير، 2017/8/24م.
- 18- إبراهيم طوقان وجدان الشعر الفلسطيني - دراسة في شعره الوطني: صادق عبدالله أبو سليمان، دار المقداد بغزة - فلسطين، (2002م).
- 19- روائع الشاعر الفلسطيني إبراهيم طوقان.

لعل من الملاحظ كثرة الدراسات التي تناولت شعر طوقان بالبحث؛ وبذلك يظهر اهتمام الباحثين بشعره؛ وذلك لما فيه من تميز فريد عن غيره، وبعد تلك الإطلاقة على الدراسات السابقة التي تناولت شعر إبراهيم طوقان؛ يتوجب عليّ بيان ما يمتاز به هذا البحث عن غيره.

فإن أهم ما يميز هذا البحث عن سابقه أنه يدرس شعر إبراهيم طوقان عبر المنهج التاريخي، ولعل هذا المنهج هو القادر على استجلاء جماليات شعر إبراهيم طوقان؛ بيد أن شعر إبراهيم يمثل وثيقة تاريخية؛ فالشاعر جعل من نفسه مؤرخاً لقضيته الأولى (فلسطين)، كما أنه لم ينس قضايا أمته في وطنه العربي الرحب؛ فسطرها بشعره، وبدل ذلك على توقد ذهنه، وعلو ثقافته؛ فأدى رسالة الشاعر الذي يحمل همّ أمته، وهذا هو شأن الشاعر صاحب الرسالة الذي قد يموت جسده، ولكن كلماته تبقى حية وتنتفض؛ لتلامس مشاعر الأحياء؛ فتظهرُ أصالته بحسه المرهف الصادق، وشاعريته الفذة.

تمهيد: لمحة عن المنهج التاريخي

المنهج لغة: الطريق، والمنهج كالمنهج، وفي التنزيل: (لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً)، والمنهج: الطريق الواضح(1)، وكلمة تاريخ تحمل معنى الماضي الإنساني، بينما كلمة أدب تحمل معنى الفن التعبيري الإنساني(2).

ونستخلص من خلال قراءتنا في المناهج الأدبية الحديثة أن المنهج التاريخي هو المنهج الذي يدرس الأديب؛ بمعرفة حياة الشاعر، وعصره الذي عاش فيه، والأحداث العامة والخاصة التي مر بها، وبدراسة النص في ضوء هذه الأحداث؛ فالمنهج التاريخي يتخذ من الحوادث وسيلة لفهم الأدب، والمناسبة التي قيل فيها، وفهم بعض الأمور والقضايا التي لها اتصال وثيق بالتاريخ؛ فلا نستطيع فهمها إلا بفهم الحياة التاريخية والسياسية والاجتماعية.

يقول الدكتور ماهر حسن فهمي: "معرفة التاريخ السياسي والاجتماعي لازمة لفهم الأدب وتفسيره، وكثيراً ما يستحيل فهم نص أدبي قبل دراسة تاريخية عريضة... وإذا كان الأديب ثمرة بيئته وعصره"(3)؛ فلا بد من فهم بيئته وعصره؛ حتى نفهم مراداته في شعره، وكما يرى الناقد الفرنسي سانت بوف أنه يجب أن يؤخذ من دواة كل مؤلف الحبر الذي يراد رسمه به(4)؛ فلا يفهم نتاج الأديب إلا بفهم الأديب نفسه وعصره وبيئته التي لها الأثر الكبير في نتاجه الفني.

وكما يذكر الدكتور نصرت عبد الرحمن عن النقاد التاريخيين أمثال: (هيوليت تين)، و(سانت بيف)، و(فيلمان)، و(برونتير)، و(هانيكان) من أنهم يجعلون العمل الأدبي واقعة، ويقفون منه موقف المفسر له، وهم في تفسيرهم يصرون عن أسس ثابتة وأخر متغيرة، أما الأسس الثابتة؛ فهي أن وراء ذلك العمل مؤلفاً محكوماً بالجنس الذي ينتمي إليه، والبيئة التي عاش فيها، وبالعصر الذي يحيا فيه(5).

وإن أصول هذا المنهج قد عرفه العرب في تقدمهم، كما يعد (ابن سلام الجمحي) في كتابه (طبقات فحول الشعراء) أول من نهج هذا النهج، وجعل الزمان والمكان والإبداع الفني في أصول منهجه النقدي.

حياة الشاعر إبراهيم طوقان(6)

(1323-1360هـ)

(1905-1941م)

ولد الشاعر إبراهيم عبد الفتاح داوود الأغا طوقان عام 1905 م 1323 هـ، في مدينة نابلس، وقد أطلق على إبراهيم طوقان ألقاب كثيرة، (كما جاء في صحيفة الدفاع الفلسطينية)؛ منها: شاعر فلسطين الألمي، شاعر الجامعة، شاعر الوطن، بلبل فلسطين الصداح، الأديب النابغ الأستاذ، شاعر الحب والثورة، أبو جعفر.

وكانت عائلة طوقان من العائلات العربية التي عرفها جبل نابلس، ومن أكثرها حفاظاً على العادات والتراث والتقاليد؛ فكان والد الشاعر وهو عبد الفتاح طوقان من أعيان المدينة ونشطاءها الوطنيين، وكان عضواً في قيادة حزب الكتلة الوطنية، كما كان عضو المؤتمر العربي الفلسطيني السابع، ثم عضواً في اللجنة التنفيذية عام 1928 م، وكان ضمن الوفد الفلسطيني إلى المؤتمر العربي القومي في بلودان بسوريا عام 1937 م.

1 - ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب، (2008) طبعة دار الحديث - القاهرة، (ج7/14/8).
 2 - انظر: حجازي، سمير، مدخل إلى مناهج النقد الأدبي المعاصر: طبعة دار التوفيق(2004)- (ص 125).
 3 - فهمي، ماهر حسن، المذاهب النقدية، دار قطري بن الفجاءة- قطر (1983)، ص(196).
 4 - انظر: هلال، محمد غنيمي، الأدب المقارن، فكر سانت بوف، دار النهضة- القاهرة، ط9، (2008)، ص 45.
 5 - انظر: عبد الرحمن، نصرت، دراسات في مذاهب نقدية حديثة وأصولها الفكرية، مكتبة الأقصى-عمان،(1979)، ص(39).
 6 - في هذا المبحث اعتمدت في الحديث عن حياته المراجع الأتية: عمر فروخ: شاعران من جبل النار، شاعران معاصران: طوقان والشابي، منشورات المكتبة العلمية- بيروت، ط1، 1954م. ص17-62، فدوى طوقان، أخي إبراهيم، بداية ديوانه، ديوان إبراهيم طوقان، مطبعة دار العودة- بيروت، ط1988م، ص 70-11)، إبراهيم طوقان: حياته، ودراسة فنية في شعره، محمد حسن عبدالله، الناشر: مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري، 2002م، ص 11-16.

أما والدة الشاعر وهي فوزية العسقلاني؛ فكانت مثل غيرها من نساء فلسطين، ربة بيت، وكانت امرأة مرحة صاحبة نكتة، وهي نشيطة تحذب على أبنائها، قريبة من النفس، خفيفة الظل، سريعة البديهة.

في وسط هذه الأجواء، فتح إبراهيم طوقان عينيه على الدنيا، وكان ترتيبه الثاني بين الأبناء والبنات، وقد رافقه المرض منذ اليوم الأول من ولادته، وامتد المرض معه في صباه وشبابه، وقد لازمته ثلاث عطل طوال حياته: صمم في أذنه، وقرحة شديدة في معدته، واستعداد لشتى الالتهابات في أمعائه؛ لذلك تردد كثيراً على الأطباء، وتناول الكثير من المسكنات، واضطر أكثر من مرة للانقطاع عن الدراسة، لكن رغم كل هذا؛ فقد كان في حداثة سنة طفلاً مرحاً لعباً، وكان إبراهيم - كما تخبرنا أخته فدوى - مداعباً لجذته لأمه التي كانت تتحدث بلكنة تركية، يحب إغاضتها واستئثارها بكثرة حركته حولها، أما جده لأبيه؛ فكان يقول الشعر والزجل؛ فتعلق به إبراهيم الذي تأثر به تأثراً كبيراً، وكان يقلد جده بصوته أو حركة يديه.

تعليمه ودراسته

كان إبراهيم في التاسعة من عمره حين التحق بالمدرسة الرشادية في نابلس، وقد أمضى فيها أربع سنوات، كانت فترة الحرب العالمية الأولى (1914م - 1918م)؛ حيث تلقى فيها علومه الابتدائية على أيدي أساتذة كرام، كان منهم: المرحوم الشيخ إبراهيم أبو الهدى الخماش، والمرحوم الشيخ فهمي هاشم.

وكانت المدرسة تتهج نهجاً حديثاً في تدريس اللغة العربية، لم يكن مألوفاً في مدارس المدينة من قبل؛ فهؤلاء المدرسون من خريجي الأزهر الشريف، وقد تأثروا بالحركات الأدبية والشعرية في مصر، ونقلوا تجارب شعراء مصر معهم، ويُعيد انتهاء الحرب العالمية الأولى انتقل إبراهيم إلى القسم الداخلي بمدرسة المطران في القدس، ولم يكن قد تجاوز الرابعة عشرة من عمره، وقد بقي فيها ما بين 1919م و1923م، وفيها عرفه أخوه أحمد الذي كان يدرس في الكلية الإنجليزية بالأديب والأستاذ نخلة زريق، وكان لهذا الاتصال أثره الكبير في إتقانه اللغة العربية وحبها؛ فكان يستمع في ندوات أستاذه نخلة إلى الشعر القديم، وإشادته بالعروبة وماضيها؛ مما زاد في ثروته الأدبية، وصقل لفظه، ورق نثره، وأصبح يميز بين صحيح الشعر وزائفه، وغدا على حداثة سنّه مرجعاً لغويّاً لزملائه في المدرسة، كما أن أخاه أحمد قد شجعه على نظم الشعر.

وأنهى إبراهيم تحصيله الثانوي في القدس إلى الجامعة الأمريكية في بيروت، عام 1921، وانتقل إلى مرحلة أعلى في دراسته، وهناك في بيروت بدأ نضوج حياة إبراهيم طوقان؛ فازدادت علاقاته، واتسعت اتصالاته، وكبر طموحه؛ ففضى في الجامعة ست سنوات، من سنة 1923م إلى 1929م، وكان طالباً مجتهداً، وكان على علاقة طيبة جداً مع أساتذته، كالباحثة أنيس خوري المقدسي، واللغوي جبر ضومط، وغيرهم.

ولم تكتمل سعادة إبراهيم رغم ما أحاطه به رفاقه وأساتذته؛ لأن مرضه عاد يلح عليه، وينغص عليه سعادته؛ فكان هائناً سعيداً في يوم، ومناًماً طريحاً في فراشه في يوم آخر، لكنه لم يستسلم، وواصل رغم مرضه، وفي بيروت عاوده الألم واشتد عليه؛ فدخل المستشفى للعلاج، وهناك لاحظ حركات الممرضات، وجمال ثيابهن؛ فنظم قصيدته المشهورة (ملانكة الرحمة)، وكان يقارض جده بعضاً من الأرجال التي حملت إلى مسامعه المرفهة معاني الحب، وكان يلقي شعره في المدرسة؛ فيسمعه المعلمون، ويعجبون بشعره.

وأكمل إبراهيم مسيرته الشعرية؛ فحاول قول الشعر الصحيح، وقد استعان بأخيه أحمد؛ ليشرح له البحور الشعرية وأصول القوافي، وأحب الشباب زمن إبراهيم طوقان مهنتي التعليم والصحافة، ويرجع عشقهم لهاتين المهنتين؛ لما كان يدور في أذهانهم من خدمة للوطن والمجتمع؛ فكان طموح إبراهيم أن يكون صحفياً معبراً عن مجتمعه وحال وطنه، مبتعداً عن مهنة التعليم؛ ظناً منه أنه لن يقوى على مقارعة التلاميذ بسبب مرضه.

وفي ساعة تخرج إبراهيم صادف أن أغمي عليه، وهو يقف فوق منصة التخرج بسبب نزيف في معدته؛ فرافقه والده إلى مصر لاستشارة الأطباء، وعندما تحسنت صحته، أراد البقاء في مصر، إلا أن والدته أصرت عليه أن يعود إلى نابلس، فعلاً عاد إبراهيم إلى نابلس.

وبالإضافة إلى دراسته، كان للقرآن الكريم دور تأسيسي في فترة البناء اللغوي لدى طوقان، وهو ما تحدث عنه لاحقاً؛ إذ يقول: «الجميل في رمضان عندي خاصة أنني أقرأ فيه القرآن، وأقرأه كله، هذا ما أصنعه في كل سنة، وأتأذذ به؛ فأصقل به لغتي، ونعم صقال القرآن، وتستوقفني بعض التراكيب؛ فأرجع إلى كتب البلاغة، فأتقنه بكشف أسرارها، وتستشكل علي بعض المعاني؛ فأرجع إلى سيد المفسرين، أستاذ الدنيا، جار الله محمود الزمخشري؛ فأصدر عنه ريان شبعان، وأتتبه إلى طرفة تاريخية؛ فأرجع إلى أبي جعفر محمد بن جرير الطبري؛ فأنسى نفسي بين أحاديثه ورواياته، هذا فضل رمضان علي، وهكذا أحسن استغلال شهر كامل في مدينة نابلس»¹.

إبراهيم المعلم

عاد إبراهيم إلى نابلس، وقام بتدريس اللغة العربية وآدابها في كلية النجاح، مع أنه كان متردداً إلا أنه تفاعل مع طلابه، وانتهى العام الدراسي، وبدأت العطلة المدرسية، وأثناء ذلك، تلقى إبراهيم عرضاً من الجامعة الأمريكية عن طريق الأستاذ أنيس الخوري للتدريس في قسم الأدب العربي في الجامعة؛ فلم يتردد إبراهيم أمام هذا العرض؛ فقد أحب بيروت وأهلها، وكان يعتبرها وطنه الثاني؛ فانتقل إبراهيم للتدريس في الجامعة الأمريكية سنة 1930م، ودرّس فيها سنتين، وقد كرم إبراهيم في بيروت، وأصبح لقبه "شاعر الجامعة"؛ لما كان له من الأثر على طلابه وزملائه.

وفي نهاية العام الدراسي، قدّم إبراهيم استقالته من الجامعة، وعاد إلى نابلس ليزاول مهنة التدريس من جديد في المدرسة الرشيدية في القدس، وعاوده المرض في أواخر سنة 1932م، وقبل نهاية الفصل الدراسي الأول اضطر تحت وطأة شدة الألم أن ينقطع عن التدريس، وظل طريح الفراش حتى أجريت له عملية جراحية نجا فيها من موت محقق بعناية الله (كما قال الجراح الذي أجرى العملية)، ولما شفي من مرضه، وغادر المستشفى في مارس 1933، قدّم استقالته من التدريس، وعزم على عدم العودة إلى هذه المهنة؛ لأنه وجد منها بلاء وسقماً؛ فعمل بعد ذلك مديراً لمصلحة المياه في دائرة البلدية، ثم عمل مدير أعمال والده التجارية، ثم ملّ هذا العمل؛ فترك الوظيفة، وأثناء فترة انقطاعه عن العمل، نظم قصائده الوطنية، ونشرها في جريدة (الدفاع) الفلسطينية، ثم عمل في الإذاعة الفلسطينية مديراً للبرامج العربية عام 1936م، وتحت وطأة الدسائس والمكائد أقصي إبراهيم من عمله.

إبراهيم المذيع والصحفي

أنشأ المستعمر البريطاني إذاعة فلسطين في القدس سنة 1936م؛ لخدمة مصالحه الاستعمارية، وبث روح الفرقة بين أبناء الشعب الفلسطيني، وعمل على إضعاف روح الانتماء العربي بنشر العامية بدل الفصحى، وبدأ المسؤولون عن برامج الإذاعة البحث عن يصلح لإدارة البرامج العربية، وأخيراً وقع الاختيار على إبراهيم طوقان، وفي 29 مارس 1936م، كان صوت إبراهيم أول صوت عربي ينتقل عبر أنثر هذه الإذاعة إلى فلسطين والوطن العربي، واستطاع إبراهيم أن يستقطب الجماهير إلى البرامج العربية في الإذاعة، وواجه إبراهيم الكثير من الصعوبات والمؤامرات ضده؛ حيث كان يبث صوته للضمير العربي، واستمر إبراهيم في العمل في الإذاعة أربع سنوات، أحب العمل بها، وبذل الكثير لأجلها، لكن في النهاية انفصل منها، وأثر إبراهيم الرحيل عن وطنه؛ فقد صعب عليه الأمر كثيراً، واستطاع بمساعدة أحد أصدقائه السفر إلى العراق؛ فذهب مع زوجته وأبنائه إلى بغداد، وعمل معلماً في الرستمية في بغداد، ولم يكد يمضي شهرين في بغداد حتى اشتد عليه المرض، ووقع فريسة لسقمه، وقبل أن ينهي الفصل الثاني من السنة الدراسية، اضطر أن يعود إلى نابلس، وهناك أنهكته آلامه وأسقامه.

زواجه

لم يتزوج إبراهيم مبكراً، ربما كان ذلك بسبب حالته الصحية، لكنه بعد سنة من عمله في الإذاعة تعرّف على (ساميا عبد الهادي)، ومال قلبه إليها؛ فعقد قرانه عليها، وأصبحت شريكته حياته في ربيع عام 1937م، وأنجبت طفلهما الأول (جعفر) عام

1 - طوقان، فدوى: أخي إبراهيم، الأعمال الشعرية الكاملة، طبعة دار العودة- بيروت ط1988م، ص11-70.

1938م، وفي العام التالي 1939م أنجبت ابنتهما (عريب)، وقد نِعِمَ إبراهيم بهذا الزواج؛ فعاش هادئاً سعيداً في بيته إلا أن السعادة لا تكتمل؛ فبعد زواجه انفصل عن الإذاعة سنة 1940م.

مرضه ووفاته

يقول إبراهيم طوقان مقررًا حقيقة مرضه وعلته: "إن المرض كالعمر والرزق، والتوفيق والفشل... وأنا بين إخوتي الباقين، وعددهم تسعة حملت بي الوالدة أم أحمد، إثر مرض خطير كان أشرف بها على الموت؛ فكننت أنا في أحشائها عندما كانت هي في دور النقاها، وأعضاء جسمها وقوتها بوجه العموم ضعيفة... (فجننتُ مركباً) على مرض وضعف¹؛ فولد إبراهيم ضعيف البنية مهزولاً، ورافقه هذا المرض من طفولته إلى صباه وشبابه؛ فكان كثير التردد على الأطباء والمستشفيات.

لكن ربما أن المرض قد أوحى له نظم بعض قصائده والتي؛ منها: "ملانكة الرحمة"، و"المرضعة الروسية"، و"الدم الخفيف"، و"نعمّة العافية"؛ فعلى الرغم مما لحق بجسمه الرقيق كان خفيف الظل، يحب النكتة والدعابة، وبعد أن عاد من العراق إلى نابلس، اشتد عليه المرض كثيراً، وأحس باقتراب أجله؛ فنقل إلى المستشفى الفرنسي قرب بيت لحم، وفي مساء يوم الجمعة، الثاني من مايو سنة 1941م، أسند إبراهيم رأسه إلى صدر أمه، وأسلم روحه الطاهرة إلى بارئها، وكان عمره حينذاك لم يتجاوز السادسة والثلاثين.

وكما تقول أخته: "كان لإبراهيم مصحف صغير لا يخلو منه جيبه؛ فلما توفي، كان ذلك المصحف تحت وسادته، ولا تزال إلى اليوم ثنية ثناها في إحدى صفحات سورة التوبة، وكانت الآيات الشريفة آخر ما تلاه إبراهيم من كتاب الله أثناء مرضه: {الذين آمنوا وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظمُ درجةً عند الله وأولئك هم الفائزون. يُبَشِّرُهُم رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ. خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنْ أَرَادَ اللهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ} (2) (3). رحمه الله رحمة واسعة.

شاعريته

تنتم شاعرية طوقان بأمرين؛ الأول- الأصالة والمحافظة؛ فنرى مدى تأثره بالقديم، ويشعر القديما؛ كأبي نواس وأي تمام، والتزامه بعمود الشعر العربي، والثاني- التجديد؛ فنرى التجديد في شعر طوقان يظهر جليا بزيادة الشطر الخامس؛ كما في قصيدة الثلاثاء الحمراء، ونرى تجديده أيضا في النشيد الوطني، وتقسيماته بنغم موسيقي فريد؛ كما في نشيد (موطني)- كما سيمر معنا من نماذج- فهو أول شاعر في القرن العشرين قد جدد في الشكل؛ وقد تأثر بالغرب كما يخبرنا إحسان عباس بقوله: "فهو في الشكل يأخذ طابع المقطوعات عند شعراء انجلترا؛ مثل: هايني، وأوسكار وايلد، وروبرت سذى"⁽⁴⁾.

فطوقان شاعر الوطنية عاش حياة قصيرة، يتقله المرض إلا أنه كان شعلة متوقدة تنكي لهيب الثورة أمام تحديات الاستعمار البريطاني، والهيمنة الصهيونية، وقد جعل من شعره أنشودة يتغنى به المقاومون والشهداء في فلسطين خاصة، وفي سائر أقطار العروبة بشكل عام، وقد أنشد لكل المجاهدين والشهداء في فلسطين وفي سائر أقطار العروبة عموما؛ فلذا لقب بشاعر فلسطين؛ لأنه حمل على عاتقه لواء المقاومة، والعزة والكرامة؛ فهو- بحق- رائد الشعر النضالي المقاوم، وكان له الأثر البالغ في الأجيال المتعاقبة- بعده- من شعراء فلسطين وغير فلسطين.

ومن يتأمل شعر طوقان يجد الجزالة والفصاحة دون تعقيد ولا إغراب، كما نلمس جمال تصاويره، واستعارته العجيبة؛ كقوله في

قصيدة الثلاثاء الحمراء:

ناح الأذان

وأعول الناقوس

- 1 - طوقان، فدوى: أخي إبراهيم، الأعمال الشعرية الكاملة، طبعة دار العودة- بيروت ط1988م، ص11-70.
- 2 - سورة التوبة: (20و21).
- 3 - طوقان، فدوى: أخي إبراهيم، الأعمال الشعرية الكاملة، طبعة دار العودة- بيروت ط1988م، ص11-70.
- 4 - الأعمال الشعرية الكاملة، طبعة دار العودة- بيروت، ط1988م، ص 7.

وهو ذلك الشاعر المتميم الرقيق، صاحب الغزل الحلو الشفيف العذري اللطيف، يقول فيه الدكتور عمر فروخ: "لقد بلغ شعر إبراهيم ثلاث ذرى متعاقبة: ذروة الحب، وذروة الشهوة، وذروة المشكلة الوطنية"⁽¹⁾، طبع ديوانه أول مرة عام 1955م، وفيه مقدمة مطولة عن حياته، بقلم شقيقته فدوى، وأعيد طبع الديوان مرة ثانية، وصدر عن دار الآداب ببيروت باسم (إبراهيم طوقان).

أما مزايا شعر طوقان الوطني كما يذكر الدكتور زكي المحاسني:

1- التصوير الصادق للحوادث السياسية والقومية.

2- انتفاضة الشعور التي تميز الشعر؛ فتعطيها روحاً متوقدة بالإيمان والدعوة؛ لأن صاحبه كان أشبه في إحساسه وتحفزه بزعيم وطني ذي رسالة.

3- وضوح في الأداء استهوى الجمهور؛ فكان بين الشاعر وقومه تجاوب وصدى؛ إذ لم يكن في ألفاظه ومعانيه ما يلتبس من الصور التي يشق عليهم استجلاؤها.

وكان شعره الوطني الذي سدده في الحوادث الحاسمة نصوصاً مكتوبة بالنار عن القضية التي انتهت بالهزيمة والخيانة⁽²⁾.

أعماله الشعرية:

1. ديوان إبراهيم طوقان: (ط 1، دار الشرق الجديد - بيروت، 1955م).

2. ديوان إبراهيم طوقان: (ط 2، دار الآداب - بيروت، 1965م).

3. ديوان إبراهيم طوقان: (ط 3، دار القدس - بيروت، 1975م).

4. ديوان إبراهيم طوقان: (ط 4، دار العودة - بيروت، 1988م).

أعماله الأخرى:

1. الكنوز؛ ما لم يعرف عن إبراهيم طوقان/ مقالات، أحاديث إذاعية، قصائد لم تنشر، رسائل ومواقف: إعداد المتوكل طه (ط 1، دار

الأسوار - عكا، ط 2، دار الشروق - عمان، بيروت). وتسمى ب(حدايق إبراهيم)

وقد صدرت عدة دراسات عن إبراهيم طوقان؛ أهمها:

1- أخي إبراهيم: (لفدوى طوقان)، صدر ب (يافا) عام 1946م.

2- شاعران معاصران: طوقان والشابي: (لعمرو فروخ).

3- إبراهيم شاعر الوطن المغصوب: (زكي المحاسني/ القاهرة).

4- ثلاثة كتب عن الشاعر: من تأليف يعقوب العودات (البدوي المثلث)(3).

5- شاعران من جبل النار: وليد جرار.

يقول الدكتور إحسان عباس: "قرىبا نسي الشعراء المحدثون أن إبراهيم رائد من روادهم، لقد جرأهم بالتنوع في داخل القصيدة الكبيرة على تنويعات من نوع جديد، ومن خلال البساطة المنفردة بوضوحها والتي شاءها مجالاً للشعر فتح لهم الباب إلى خلق دهليز الغموض، وعن طريق الالتزام بقضية وطنه أعطاهم درساً عميقاً في أن الارتباط بقضية الشعب لا بد أن يتم أولاً على مستوى التعبير (الدارج) المؤثر الموحى، الذي يعي أن الشعر مطهر ضروري لتصفية المبتذل والمألف"⁽⁴⁾.

1- صدوق، راضي، موسوعة أعلام الشعر العربي، (2000)، الدار السعودية - الدمام، ص 51 و52.

2 - إبراهيم طوقان في حياته وشعره وشقاء بلاده بالصهيونية والاستعمار، وله عنوان آخر/ إبراهيم طوقان شاعر الوطن المغصوب: د. زكي المحاسني طبعة دار العودة - بيروت، (1956)، ص 221 و222.

3 - صدوق، راضي: موسوعة أعلام الشعر العربي، (2000)، الدار السعودية - الدمام، ص 51 و52.

4- عباس، إحسان: نظرة في شعر إبراهيم طوقان، مقدمة ديوانه، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط 2، ص 12.

نبذة عن الحياة السياسية والاجتماعية والفكرية

لا شك أن تاريخ فلسطين لا يخفى على أحد؛ فنحن من أبناء فلسطين لطالما سمعنا أجدادنا وأباءنا يحدثوننا عن تلك الأيام التي عايشوها؛ فلسطين قبل الحرب العالمية الأولى كانت جزءاً من بلاد الشام التي يحكمها العثمانيون، وسياسة الإقطاع تعم البلاد، والفقر قد تفشى وانتشر، وكانت أطماع اليهود في الحصول على وطن قومي قائمة؛ فسعى الصهاينة إلى هذه الغاية، وطلبوا من السلطان عبد الحميد ذلك، واضعين كل المغريات بين يديه، من مال ومساندة في الحرب؛ فرفض ذلك وبشدة، مشكوراً.

وبعد أن انهزم العثمانيون في الحرب العالمية الأولى، وانتهى الحكم العثماني في بلاد الشام، ووكانت فلسطين جزءاً منه، أصبحت بلاد الشام نهياً للحلفاء المنتصرين؛ فتقاسموا البلاد، وفرقوها إلى دويلات، ووضعوا حدوداً مصطنعة، وهي قائمة إلى يومنا هذا، وكانت فلسطين تحت الانتداب البريطاني، وفي هذه الأثناء قام الصهاينة بإغراء بريطانيا بالدمع المادي، والمساندة لهم في الحرب، على أن تكون فلسطين وطناً قومياً لها؛ فقام وزير الخارجية البريطاني بإعطاء اليهود (وعد بلفور) المشؤوم؛ فسمح الإنجليز لليهود بالهجرة الجماعية، وقاموا بمساندتهم في تملك الأراضي؛ فأخذ اليهود بشراء الأراضي بأموال مغرية، ووضع اليهود السماسرة؛ لتسهيل شراء الأراضي؛ فانقسم الفلسطينيون إلى قسمين: قسم لهثوا وراء المغريات؛ فباعوا الأراضي، ومالوا إلى حياة البذخ والترف مع المغريات التي أوجدها اليهود، من وجود الغايات والقاتنات؛ لإفساد الفلسطينيين، والهائم عن قضايا وطنهم وأرضهم، وكذلك لاسترجاع الأموال التي بذلوها لشراء الأراضي، وقد نجح اليهود في ذلك لحد كبير.

أما القسم الثاني - قسم متنبه واعٍ لما يحاك لوطنه من مؤامرات، لا يفرط في أرضه، ولا يبيعه بأي ثمن؛ بل كان يعد من يبيع الأرض لليهود أنه خائن.

أما الحياة الفكرية كما صورها لنا الدكتور زكي المحاسني⁽¹⁾؛ فنذكر ذلك مختصراً؛ إذ كانت تعيش فلسطين في هذه الفترة حركة نشاط فكري وثقافي؛ وذلك لكثرة المدارس؛ فكانت هناك المدارس الخاصة، والمعاهد الحكومية القليلة، وكان المشرفون على هذه المدارس من أعلام فلسطين المعروفين في عالم التربية والتعليم، هذا وكما لا يخفى أثر المدارس الأجنبية التي أسستها الدول المهتمة بالأرض المقدسة؛ فيقول د. المحاسني في هذا الموضوع: "شهدت فلسطين - في حياة طوقان وبعدها - وجوها من الأدب العربي المعاصر لمصريين وسوريين بزيارة طائفة من أعلام الفكر والقلم، دعتهم إذاعتها وندوات الثقافة للمحاضرة فيها؛ فكان لاستجابتهم تجديد في نشاط الحركة الفكرية والأدبية في تلك البلاد"⁽²⁾.

هذه أهم المعالم الرئيسية في الحياة السياسية والاجتماعية والفكرية، والتي كان لها الأثر الكبير في حياة الشاعر وشعره وأدبه، كيف لا؟! وهو من نذر نفسه وأنفاسه من أجل وطنه، وقضاياها.

نماذج من شعر طوقان عبر المنهج التاريخي

الثلاثاء الحمراء⁽³⁾

لَمَّا تَعَرَّضَ نَجْمُكَ المَنحُوسُ وَتَرْتَحَّتْ بَعْرَى الجِبَالِ رُؤُوسُ
 نَاحِ الأَذَانُ وَأَعْوَلَ النَاقُوسُ فَالليلُ أَكْدَرُ وَالتَّهَارُ عَبُوسُ
 طَفِقَتْ تَنُورُ عَوَاصِفُ وَعَوَاطِفُ
 وَالموتُ حِينَا طَائِفُ أَوْ خَاطِفُ
 وَالمَعْوَلُ الأَبْدِيُّ يُمَعِنُ فِي التَّرَى لِيَرُدَّهُمْ فِي قَلْبِهَا المَتَحَجَّرِ
 يَوْمَ أَطَّلَّ عَلَى العَصُورِ الخَالِيَةِ وَدَعَا أَمْرٌ عَلَى الِوَرَى أَمثَالِيَةِ

1. إبراهيم طوقان في حياته وشعره، وشقاء بلاده بالصهيونية والاستعمار /وله عنوان اخر/ ابراهيم طوقان شاعر الوطن المغصوب/د. زكي المحاسني طبعة دار العودة-بيروت، (193-194).

2. المصدر السابق، ص(199).

3 - ديوان إبراهيم طوقان: ص274-281.

فأجابهُ يومَ أجلٍ أنا راوِيُهُ لمحاكمِ التفتيشِ تلكَ الباغِيَهُ
ولقد شهدتُ عجائباً وغرائباً
لكنَّ فيكَ مصائباً ونوائباً
لم ألقَ أشباهاً لها في جورِها فاسألُ سوايَ وكم بها من منكرِ
وإذا بيومٍ راسفٍ بقيودِهِ فأجابَ والتاريخُ بعضُ شهودِهِ
أنظرُ إلى بيضِ الرقيقِ وسودِهِ مَنْ شاءَ كانوا مُلكَهُ بنقودِهِ
بشرٌ يُباعُ ويُشترى فتحزراً
ومشى الزمانُ القهقريَ فيما أرى
فسمعتُ من منعِ الرقيقِ وبيعهُ نادى على الأحرارِ يا مَنْ يشتري
وإذا بيومٍ حالِكِ الجلبابِ مُترنِّجٍ من نشوةِ الأوصابِ
فأجابَ كلا دون ما بك ما بي أنا في ربي عاليه ضاع شبابي
وشهدتُ للسفاح ما أبكى دما
ويل له ما أظلما لكنما
لم ألقَ مثلكَ طالعاً في روعةٍ فاذهبْ لعلك أنت يومَ المحشرِ
اليومِ تُكرهه الليالي الغابرةُ وتظلّ ترمقه بعينِ حائره
عجباً لأحكامِ القضاءِ الجائرهُ فأخفها أمثالُ ظلمِ سائره
وطن يسيرُ إلى الفناءِ بلا رجاءِ
والداءُ ليس له دواءُ إلا الإيباءُ
إن الإيباءَ مناعةٌ إن تشتملُ نفسٌ عليه نمتُ ولما تفهر
الكلُّ يرجو أن ييكّرَ عفوهُ ندعو له ألا يكدرَ صفوهُ
إن كان هذا عطفهُ وحنوهُ عاشتُ جلالتهُ وعاش سموهُ
حملَ البريدُ مُفصلاً ما أجملاً
هلا اكتفيتَ توسلاً وتَسولاً
والموتُ في أخذِ الكلامِ وردِهِ فخذِ الحياةَ عن الطريقِ الأقصرِ
ضاقَ البريدُ وما تغيّرَ حالُ والذلُّ بين سطورنا أشكالُ
خسراننا الأرواحِ والأموالُ وكرامةٌ يا حسرتنا أسمالُ
أو تُبصرونَ وتسالونَ ماذا يكونُ
إنَّ الخداعَ له فنونُ مثلُ الجنونِ
هيهات فالنفسِ الذليلةُ لو غدت مخلوقةً من أعينٍ لم تُبصرِ
أنى لشاكٍ صوتهُ أن يُسمعا أنى لباكِ دمعهُ أن ينفعا
صخرٌ أحسَّ رجاءنا فتصدعا وأتى الرجاءُ قلوبهم فتقطعا
لا تعجبوا فمن الصخورِ نبعُ يفورُ
ولهم قلوبٌ كالقبورِ بلا شعورِ
لا تلتمسُ يوماً رجاءً عندَ مَنْ جرّبتُهُ فوجدتُهُ لم يشعُرِ

الساعة الأولى

أنا ساعة النفس الأبيَّه الفضلُ لي بالأسبقيَّة
 أنا بكُرُّ ساعاتٍ ثلاثٍ كلها رمزُ الحميَّة
 بنْتُ القضيةَ إنَّ لي أثراً جليلاً في القضية
 أثرَ السيوفِ المشرفِ ية والرماحِ الزاغيَّة
 أودعتُ في مُهجِ الشبيدِ به نَفحةَ الرُّوحِ الوفيَّة
 لا بدَّ من يومٍ لهم يسقي العدى كأسَ المنية
 قسماً بروحِ فؤادِ تصدِّ عدُّ من جوانِحِه زكيَّة
 تأتي السماءَ حفيَّةً فتحلَّ جنَّتها العليَّة
 ما نال مرتبةَ الخلو د بغيرِ تضحيةٍ رضيَّة
 عاشتْ نفوسٌ في سبي ل بلادها ذهبتْ ضحيَّة

الساعة الثانية

أنا ساعة الرجل العتيدِ أنا ساعة البأسِ الشديدِ
 أنا ساعة الموتِ المشرِّ رف كلَّ ذي فعلٍ مجيدِ
 بطلي يُحطِّمُ قيدهُ رمزاً لتحطيمِ القيودِ
 زاحمتُ مَنْ قبلي لأسدِّ بقها إلى شرفِ الخلودِ
 وقدحتُ في مُهجِ الشبا ب شرارةَ العزمِ الوطيدِ
 هيهاتِ يُخدَعُ بالوعودِ وأن يُخدَّرَ بالعهودِ
 قسماً بروحِ محمدٍ تلقى الردى حُلُوَ الورودِ
 قسماً بأُمَّك عند مو تك وهي تهتفُ بالنشيدِ
 وترى العزاءَ عن ابنها في صيته الحسنِ البعيدِ
 ما نال مَنْ خدمَ البلادَ أجلَّ من أجرِ الشهيدِ

الساعة الثالثة

أنا ساعة الرجل الصبورِ أنا ساعة القلبِ الكبيرِ
 رمزُ النَّباتِ إلى النَّها ية في الخطيرِ من الأمورِ
 بطلي أشدُّ على لقا ء المَوْتِ من صمِّ الصخورِ
 جذلان يرتقبُ الردى فاعجبْ لموتٍ في سرورِ
 يلقى الإلهَ مُحَضَّبَ ال كَفَيْنِ في يومِ النَّشورِ
 صَبَّرُ الشباِبِ على المصابِ وديعتي ملءُ الصِّدورِ
 أُنذرتُ أعداءَ البلادِ بشرِّ يومٍ مُستطيرِ
 قسماً بروحك يا عطا ء وجنة الملكِ التقديرِ
 وصغاركَ الأشبالِ تبكي اللَّيْثَ بالدَّمعِ الغزيرِ
 ما أنقذَ الوطنَ المفدى غيرُ صَبَّارِ جَسورِ

ويعد الشاعر إبراهيم طوقان المؤرخ للقضية الفلسطينية؛ فلم يترك حادثة ولا مناسبة إلا وبث عبرها رسالته، داعياً الأمة للحفاظ على الوطن، والثبات على المبادئ، ومن هذه الحوادث (حادثة البراق)؛ فإذا بالشاعر يكتب قصيدة (الثلاثاء الحمراء)، ولعل المتلقي عندما يسمع هذا العنوان، فإنه لا يتسنى له فهم ما يوحي به هذا العنوان إلا بالعودة إلى الأحداث التاريخية؛ إذ حاول اليهود في صيف 1929م الخروج على التقاليد الثابتة المتعلقة بصلاتهم في موقع (البراق)؛ فهاج العرب؛ لأنهم فطنوا إلى ما يضمّر اليهود من وراء هذه المحاولة؛ من اعتداء على الأماكن الإسلامية المقدسة؛ فنشبت في القدس والخليل ويافا وصفد اضطرابات دامية بين اليهود والعرب، قتل فيها من اليهود عدد كبير في مدينتي الخليل وصفد، ثم أُلقت السلطات البريطانية القبض على بعض الشبان، واتهمتهم بقتل اليهود وحوكموا، وصدرت أحكام الإعدام على الشهداء الثلاثة؛ وهم: فؤاد حجازي من صفد، ومحمد جمجوم، وعطا الزير من الخليل - رحمهم الله جميعاً⁽¹⁾.

لقد كانت ثورة البراق مفصلاً مهماً في تاريخ النضال الفلسطيني، أثبتت عدوانية اليهود ونواياهم المبيتة لأرض فلسطين وشعبها، كما كانت وصمة دامغة في تاريخ القضاء البريطاني، ولعل التضحية بالذات في سبيل المجموع قد تجلت بأنصع صورها من خلال تسابق الشهداء الثلاثة إلى حبل المشنقة⁽²⁾.

وفي هذا الصدد، تصف فدوى طوقان اليوم الذي تم فيه إعدام الشهداء فتقول: "وفي نهار الثلاثاء، السابع عشر من حزيران سنة 1930م، كان التكبير على المآذن، وقرع النواقيس في الكنائس، يتجاوب صداهما في أرجاء فلسطين قاطبة؛ إذ في ذلك النهار نفذ حكم الإعدام بالشهداء الثلاثة، في ثلاث ساعات متوالية؛ فكان أولهم فؤاد حجازي، وثانيهم محمد جمجوم، وثالثهم عطا الزير، وكان من المقرر رسمياً أن يكون الشهيد (عطا الزير) ثانيهم، ولكن (جمجوما) حطم قيده، وزاحم رفيقيه على الدور؛ ففاز ببغيته... وهنا أخذ الشاعر ريشته؛ ليصور هذا اليوم المخضب بالدماء أروع تصوير، وليسجل في سفر الشعر الوطني الخالد، مصارع أولئك الشهداء؛ فتكون قصيدة (الثلاثاء الحمراء)"⁽³⁾.

ومن هنا يظهر لنا مدى البعد التاريخي في فهم هذه القصيدة، وإن هذه القصيدة فيها كثير من الأبعاد التاريخية التي تتمثل فيما

يأتي:

أولاً- العنوان:

فالعنوان - بحد ذاته - يوحي لنا بحادثة تاريخية في هذا اليوم كما بينا؛ فإن يوم الثلاثاء يوم من أيام التاريخ، ولكنه ليس كأى يوم، وقد وصف هذا اليوم باللون الأحمر؛ دلالة على الدم، إنه ليس كأى دم؛ بل هو دم زكي يستحق أن يخلد ويمتدح؛ لأنه دم الشهداء الذين بذلوا أرواحهم في سبيل الوطن، إن هذا اليوم يوم بطولة هؤلاء الشهداء؛ فكثير من الناس يقتلون، ويحكم عليهم بالإعدام، ولكن لا يخلد ذكركم، لكن هذه الحادثة خالدة في الأذهان مع مرور الزمن الطويل عليها؛ فمن منا لا يعرف هؤلاء الأبطال، ولقد كانت (الثلاثاء الحمراء) سبباً في تخليد ذكركم.

ولعل عنوان القصيدة (الثلاثاء الحمراء) يغطي بداية الحدث، ويؤرخه ويصفه، والعنوان - بحد ذاته - أصبح عنواناً لأحداث البراق؛ فما إن تذكر الثلاثاء الحمراء حتى تحضر في الذاكرة والنفوس أجواء الثورة، وإعدام الأبطال، وسجن عكا⁽⁴⁾؛ فإن الأمور الواقعية تأثر في الناس أكثر من غيرها؛ لأنها تقوم على المشاهدات والمحسوسات، والثلاثاء الحمراء كانت بالغة الأثر على الناس. لقد "حازت الثلاثاء الحمراء على شهرة كبيرة وضعتها في مصاف ما أنتجه كبار المبدعين في وقتها، وما زالت قيمتها الفنية والتاريخية مستمرة إلى أيامنا هذه... ولقد فعلت القصيدة فعلها في تثوير الجماهير الفلسطينية"⁽⁵⁾.

1 - ديوان إبراهيم طوقان: ص 274.
2 - انظر: طه، المتوكل، حدائق إبراهيم، ص 328.
3 - طوقان، فدوى: أخي إبراهيم، ص 37 و 38.
4 - طه، المتوكل: حدائق إبراهيم، ص 342.
5 - المصدر السابق: ص 343.

وفي هذه الملحمة القومية الخالدة قال الشاعر الكبير بشارة الخوري (الأخطل الصغير): "هذه العواطف الفياضة، والصور الشعرية البارة، يلبسها إبراهيم ألوانها الممتازة؛ للحزن لونه، وللعنف لونه، وهكذا إلى ما لا نهاية له من الألوان التي ترسمها النفس الشاعرة المتألّمة"⁽¹⁾!

ثانياً- الساعات الثلاث:

إن إبراهيم طوقان جعل الساعات تتكلم بلسان حال هؤلاء الأبطال؛ فالساعة الأولى ساعة النفس الأبية، والساعة الثانية ساعة الرجل العتيد، والثالثة ساعة الرجل الصبور؛ فالوقت هو الذي يحكم ويتكلم بعد الحكم بالموت، و"عندما تحدث الشاعر عن الساعات الثلاث واجه الحركة بأشد توتر لها؛ فانتقلت الساعات من كونها "زمانا" عاديا إلى كونها "زمانا" غير عادي، ولجأ الشاعر إلى بحر الحركة والتوتر والكثافة؛ فالبحر المتقارب يناسب التوتر والحضور والسخونة، ولكن لماذا تكلم الشاعر على لسان الساعات، وليس على لسان الانسان؟

لقد نظر إلى الزمان- بجملته- نظرة شمولية داخل المطلق الذي يؤمن به؛ ولهذا فقد رأى أن الساعات الثلاث جزء صغير من الزمن الممتد المضطرب المحكوم بقوانين الموت⁽²⁾، وإنما لنقرأ هذه القطع الذائبة؛ فنتخيل الشاعر وقد اسشهد ثلاث مرات مع كل شهيد مرة؛ أفلا ترى هذه الأجزاء المتقطعة من نفسه، والخيالات السوداء التي تطوف في كل بيت من قصيدته، كما تطوف الأحلام السكرى برأس الذين قرئت على مسامعهم الأحكام بقتلهم⁽³⁾!

ثالثاً- محاكم التفتيش:

يوماً أظَلَّ على العصور الخالية ودعا أمرٌ على الورى أمثاليه

فأجابهُ يومٌ أجلُّ أنا راويهُ لمحاكم التفتيش تلك الباغية

أشار الشاعر إلى محاكم التفتيش، وهي التي ظهرت عند سقوط الأندلس؛ فكان الصليبيون قد عذبوا المسلمين، وأمغنوا في قتلهم عن طريق ما يسمى بمحاكم التفتيش؛ فربط الشاعر ما يجري من قتل على أرض فلسطين بما حصل في الماضي للمسلمين في الأندلس.

رابعاً- بيع العبيد:

بشراً يُباع ويُشترى فتحراً

ومشى الزمانُ القهقري فيما أرى

فسمعتُ من منق الرقيق ويبيعه نادى على الأحرار يا من يشتري

يشير الشاعر إلى بيع العبيد والرقيق، وهذه عادة قديمة قد نبذها الإسلام منذ زمن بعيد، وقضى عليها، وتركها الناس، ولكن الشاعر يذكر أن التاريخ أصبح يعيد نفسه، والأحرار أصبحوا عبيداً.

خامساً- السفاح:

فأجاب كلاً دون ما بك ما بي أنا في ربي عاليه ضاع شبابي

وشهدتُ للسفاح ما أبكى دما

ويل له ما أظلما لكنما

يشير الشاعر إلى مجازر عالية، وجمال باشا السفاح التي كانت في العهد العثماني، والتي سفكت الدماء، دون أي وجه حق؛ فالشاعر يمثل ما جرى من المذابح بما يجري للأبطال من قتل؛ فهو يسقط الماضي على الحاضر.

1 - العودات، يعقوب: إبراهيم طوقان في وطنياته ووجدانياته، منشورات المكتبة الأهلية - بيروت 1965م، ص39.

2 - طه، المتوكل: حدائق إبراهيم، ص333.

3 - العودات، يعقوب: إبراهيم طوقان في وطنياته ووجدانياته، منشورات المكتبة الأهلية - بيروت 1965م، ص39.

سادساً- المندوب السامي:

الكلُّ يَرجو أن يُكفِّرَ عَفْوُهُ نَدْعُو له أَلَّا يُكَدَّرَ صَفْوُهُ
 إنْ كانَ هذا عَظْفُهُ وَحُنُوُّهُ عاشتْ جَلالَتُهُ وعاشَ سُمُوهُ

الضمير يعود في كلمة (عفوهُ) إلى المندوب السامي البريطاني في فلسطين، وقد ألحت الهيئات السياسية العربية عليه؛ ليصدر عفوهُ⁽¹⁾؛ فهذه إشارة إلى الاستعمار البريطاني لفلسطين في تلك الفترة.

سابعاً- تحطيم القيود:

بَطْلِي يُحَطِّمُ قَيْدَهُ رمزاً لتحطيم القيود

كان المقرر رسمياً أن يكون الشهيد عطا ثانيهم، ولكن مجموعاً حطم قيده، وزاحم رفيقيه على الدور؛ ففاز ببغيته⁽²⁾! وهنا إشارة لموقف تاريخي يبين كيف تسابق ذلك البطل لنيل الشهادة.

ونختم الحديث عن القصيدة بقول الناقد البارع الدكتور إحسان عباس: "يمكن أن يعد عام 1930م بداية الشعر الفلسطيني الحديث في الشكل والمضمون، ونظم إبراهيم طوقان قصيدته "الثلاثاء الحمراء" في تخليد بطولاتهم؛ فجاءت قصيدة جديدة في شكلها الفني ومضمونها ونهجها، صحيح أنها- في الشكل الخارجي- تشبه الموشح، ولكنها موشح بالغ الدقة والتعقيد في دوراته، أما التجديد الكلي فيها؛ فهو ذلك التدرج الدرامي في حركة الأيام التي نطقت عن نفسها مشبهة ذلك اليوم المهول- يوم إعدام الشهداء الثلاثة- والتدرج الدرامي في حركة الساعات الثلاث التي اختصت كل ساعة منها بالحديث عن مميزات كل شهيد منهم؛ ففي المراوحة بين الأيام الثلاثة، والساعات الثلاث، وفي النقلة من نطاق الموشح في حديث الأيام، إلى التباري الخطابي في حديث الساعات كان إبراهيم يضع نواة مهمة في تطوير الشعر الفلسطيني"⁽³⁾.

قصيدة الشهيد⁽⁴⁾

عبس الخطبُ فابتنسُم وطغى الهولُ فاقترحم
 رابط الجأش والنهى ثابتُ القلبِ والقدمُ
 لم يُبالِ الأذى ولم يثنِيهِ طارئُ الألمِ
 نفسه طَوْعُ هِمَّةٍ وَجَمَّتْ دُونَهَا الهَمُّ
 تلتقي في مزاجها بالأعاصيرِ والحُممِ
 تجمُعُ الهائجِ الخِضَمِ إلى الراسخِ الأثَمِ
 وهَيَّ من عُنصرِ الفِدا ء ومن جوهرِ الكرمِ
 ومن الحقِ جَنوةٌ لَفحُها حرَّرَ الأُممِ
 سارَ في منهجِ العلى يطرُقُ الخلدَ منزلاً
 لا يبالي مكبلاً نالَهُ أمٌ مُجَدَّلاً
 فهو رهْنٌ بما عزمُ
 ربما غالَهُ الردى وهو بالسَّجَنِ مُرتَهَنُ
 لم يشيِّعْ بدمعةٍ من حبيبٍ ولا سَكُنُ
 ربما أدرج التراب سليباً من الكفنِ

1 - ديوان طوقان: ص278.

2 - المصدر السابق: ص282.

3 - عباس، إحسان: الشعر في فلسطين حتى عام 1967، الموسوعة الفلسطينية/ القسم الثاني المجلد الرابع، طبعة بيروت 1990، ص 21.

4 - ديوان طوقان: ص 271.

لست تدري بطاؤها غيَّبته أم القنن
لا تقل أين جسمه واسمه في فم الزمن
إنه كوكب الهدى لآخ في غيِّه المحن
أرسل الثور في العيون فما تعرفُ الوسن
ورمى النار في القلوب فما تعرفُ الضعن
أي وجه تهللاً يرد الموت مُقبلاً
صعد الروح مُرسلاً لحنه يُنشدُ الملا
أنا لله والوطن

هذه "قصيدة الشهيد" التي خلد فيها طوقان ذكر الشهداء الثلاثة الذين ذكروا في "الثلاثاء الحمراء"؛ فها هو يخلد ذكرهم مرة أخرى في الذكرى الرابعة لهم؛ حيث تقول أخته في ذلك: " وتلقت الآن إلى إبراهيم شاعر الوطن الذي سجل آلام فلسطين وأمالها خلال الانتداب الإنكليزي، كما لم يسجله شاعر فلسطيني من قبل، انظر إليه وقد خلد ثورة فلسطين وشهداءها سنة 1929م في قصيدة "الثلاثاء الحمراء"، ثم يوم عاد في الذكرى الرابعة لهؤلاء الشهداء؛ فخلدهم مرة أخرى في قصيدة "الشهيد"، كل ذلك في شعر لاهب حماسي؛ فلا بكاء ولا استحذاء، وإنما هي صرخات مدوية مجلجلة، تحفز الهمم، وتثير الشعور بالعزة والإباء... وفي قصيدة (الشهيد) ينقلنا إبراهيم بدقة وصفه، وروعة تصويره إلى ما يثور في نفس الشهيد من عواطف، واستبسال في سبيل الواجب الأسمى، لا يبتغي من وراء ذلك ذبوع اسم، ولا اكتساب صيت، وإنما هو عنصر الفداء، وجوهر الكرم، صيغت منهما نفس الشهيد؛ فهان عندها الموت في سبيل الله والوطن⁽¹⁾.

قصيدة الفدائي⁽²⁾

لا تسأل عن سلامته روحه فوق راحته
بدلته همومه كفنأ من وسادته
يرقب الساعة التي بعدها هول ساعته
شاغل فكر من يراه بإطراق هامته
بين جنبيه خافق يتلظى بغايته
من رأى فحمة الدجى أضرمت من شرارته
حملته جهنم طرفاً من رسالته
هو بالباب واقف والردي منه خائف
فاهدأى يا عواصف خجلاً من جراته
صامت لو تكلماً لفظ النار والدما
قل لمن عاب صمته خلق الحزم أبكما
وأخو الحزم لم تزل يده تسبق الفما
لا تلوموه قد رأى منهج الحق مظلماً
وبلاداً أحبها ركنها قد تهدماً
وخصوماً ببغيتهم ضجت الأرض والسما

1 - طوقان، فدوى: أخي إبراهيم، ص 49 و50.

2 - ديوان طوقان: ص 313.

مرَّ حينَ فكاد يق تُلَّهُ اليأسُ إنّما
هو بالباب واقفُ والرّدى منه خائفُ
فاهدأي يا عواصفُ خجلًا من جرائته

عينت الحكومة المنتدبة يهوديا بريطاني الجنسية لوظيفة النائب العام في فلسطين؛ فأمعن في النكايّة والكيد للعرب بالقوانين التعسفية الجائرة التي كان (يطبخها)، ولما ثقلت على العرب وطأته كمن له أحد الشبان المتحمسين في مدخل دار الحكومة في القدس وأطلق النار عليه؛ فجرحه⁽¹⁾، وهذه أول محاولة اغتيال سياسي يقوم بها شاب فلسطيني بمفرده؛ لأغراض سياسية؛ فنظم إبراهيم في هذا الشاب الجريء قصيدة سماها (الفدائي)، وقد علق عليها الأستاذ بشارة الخوري صاحب جريدة (البرق) البيروتية في العدد الصادر في التاسع من حزيران عام 1930م بقوله: أتعرف شيئاً عن الشاعرية المتوثبة التي تجيش بها النفوس الضمأى إلى حرياتهما؟ أتعرف شيئاً عن البلاغة تطلقها الشفاه الملتهبة دماً ونازاً؟ تعرف إليها إن: وذكر القصيدة⁽²⁾.

ويذكر يعقوب العودات أن الفدائي الذي قام بهذا العمل هو: السيد عبد الغني محمد أبو طيبخ من حمولة "السباعنة"، في قرية "قباطية"، التابعة لقضاء "جنين"، وقد حكم عليه بالسجن خمسة عشر عاماً⁽³⁾.

قصيدة زيادة الطين⁽⁴⁾...

من كان ينكر نوحاً أو سفينته
فإن نوحاً بأمر الله قد عادا
حلّ الوبال "بعييال" فمال به
يا هيبّة الله إبراقاً وإرعادا
في جارف كعجيج البحر طاغية
أمواجه تحمل الأسواق امدادا
ولا تزال من الزلزال باقية
تذكارها يوقد الأكباد إيقادا
منذ احتلتم وشؤم العيش يرهقنا
فقرأ وجوراً وإنعاساً وإفسادا
بفضلكم قد طغى طوفان هجرتهم
وكان وعداً تلقيناه إيعاداً
واليوم من شؤمكم نبلى بكارثة
هذا هو الطين والماء الذي زاد

مناسبة القصيدة:

قيلت القصيدة بمناسبة الطوفان الذي اجتاح مدينة نابلس وضواحيها سنة 1935م، فهذا هو طوفان يؤرخ هذا الحدث الهام التاريخي بشعره؛ رابطاً تلك المصيبة بوجود اليهود؛ وذلك لشدة وعيه بمكر اليهود ومؤامراتهم، وهذه المقطوعة الصغيرة فيها أبعاد تاريخية كثيرة؛ منها:

أولاً- ذكر نوح - عليه السلام - وسفينته:

فلقد ربط الشاعر الطوفان الذي حل بالبلاد بتلك الحادثة التاريخية التي حصلت في الماضي، وما يحدث في الحاضر لدى الشاعر؛ فهو يذكرنا بالطوفان الذي أهلك الله فيه قوم نوح - عليه السلام -.

ثانياً- ذكر جبل "عييال":

فيذكر الشاعر (جبل عييال) وما حل به من وبال في ذلك الوقت، وهو جبل يقع في الجهة الشمالية من مدينة نابلس، ومدينة نابلس تقع بين جبلين: عييال في الجهة الشمالية، وجرزيم في الجهة الجنوبية.

1 - ديوان طوقان: ص 313.

2 - انظر: العودات، يعقوب: إبراهيم طوقان في وطنياته ووجدانياته، منشورات المكتبة الأهلية - بيروت 1965م، ص 45.

3 - المصدر السابق: ص 46.

4 - ديوان طوقان، ص 348.

ثالثاً- ذكر الزلزال:

"وهو الزلزال الذي وقع سنة 1929م. وقد خسرت فيه نابلس الكثير من الأرواح"⁽¹⁾، ويقول يعقوب العودات: "حتى الزلزال العنيف الذي اجتاحت مدن فلسطين والأردن، ودك مباني نابلس دكاً عنيفاً لم ينس إبراهيم (فلسطين) وطنه الغالي؛ بل صور شاعرنا المحن التي انتابتها؛ من زلزال قاصف، عصف بمدنها عسفاً، وإلى جراد زاحف، طغى على سهولها وجبالها، وعبث بزرعها وثمارها، إلى وياء جارف، غشي بني وطنه، وكان نذير شؤم وتعاسة:

رب لطفا! فقد أتاننا نذير بوباء من بعد هذا الويال!
وجراد، وكل آت قريب أو بعد الإمحال من أمحال!⁽²⁾

رابعاً- ذكر هجرة اليهود:

"ولربما كان إبراهيم طوقان الشاعر الوحيد الذي خص الهجرة بمقطوعة مستقلة، قصرها على هذا الموضوع"⁽³⁾؛ فيذكر الشاعر هجرة اليهود، ويشبه حالها بذلك الطوفان الجارف الذي أصاب البلاد. بفضلكم قد طغى طوفان هجرتهم وكان وعداً تلقيناه إيعاداً

خامساً- وعد بلفور:

يشير الشاعر إلى ذلك الوعد المشؤوم (وعد بلفور) الذي يقضي بإعطاء اليهود الحق بوجود وطن قومي على أرض فلسطين.

نشيد بطل الريف⁽⁴⁾

في ثنّايا العجاج *** والتحام السيوف
بينما الجوّ داج *** والمنايا تطوف
يتهادى نسيم *** فيه أركى سلام
نحو عبد الكريم *** الأمير الهمام
ريفنا غابنا نحن فيه *** الأسود ريفنا نحّميه
كلنا يُعجب *** بفتى المغرب
كلنا يطرب *** لانتصار الأبي
أين جيش العدا *** إن دعا للجهاد
أصبحوا أعبدا *** بالسيوف الحداد
ريفنا غابنا نحن فيه *** الأسود ريفنا نحّميه
طالما استعبدوا *** وأذلّوا الرقاب
أيها الأيدى *** جاء يرم الحساب
فليذوقوا الزعاف *** بالظبي والأسل
ولنعّل الهتاف *** للأمير البطل
ريفنا غابنا نحن فيه *** الأسود ريفنا نحّميه

إن الشاعر هو الذي ينتمي لدينه ووطنه؛ فهذا هو شاعرنا يسطر لنا معالم البطولة في أقاصي الوطن العربي؛ ليحفظ لنا سفرا تاريخيا خالدا من الجهاد والبطولة، في سيرة ذلك البطل المغربي (عبد الكريم الخطابي) الذي أقض مضاجع الظالمين؛ فنشيد عبد

1 - ديوان طوقان: ص 349.

2 - ديوان طوقان: ص 456.

3 - محمود، حسني: شعر المقاومة الفلسطينية دوره وواقعه في عهد الانتداب، الوكالة للنشر والتوزيع، 1985، ص 102.

4- ديوان طوقان: ص 517.

الكريم: وفي الثورة التي أضرم نارها، وأجج أوارها، عام 1924م بطل المغرب العربي المغفور له - بإذن الله - الأمير عبد الكريم الخطابي، وشنها غارة شعواء على فرنسا وإسبانيا دولتي البغي والطغيان، تسابقت كبريات صحف العالم إلى نشر أخبارها، وصنف بعضهم الكتب والروايات في وصف بطولات المناضل العربي وجراته، ووقوفه في وجه الاستعمار، وقفة القرم الجبار، فنظم (إبراهيم) (تشيد بطل الريف) مفاخرًا بالبطل الحلال الذي صفع الظالمين بحفنة من المناضلين المؤمنين⁽¹⁾!

إلى بائعي البلاد⁽²⁾

باعوا البلادَ إلى أعدائهم طمعاً بالمالِ لکنما أوطانهم باعوا
قد يُعذرونَ لو أنَّ الجوعَ أرغمهم والله ما عطشوا يوماً ولا جاعوا
وبلغة العار عند الجوع تلفظها نفس لها عن قبول العار رادع
تلك البلادُ إذا قلتَ اسمها وطنٌ لا يفهمون ودون الفهم أطماعُ
أعداؤنا منذُ كانوا صيارفةً ونحنُ منذُ هبطنا الأرضَ زُرَّاعُ
لَمْ تَعكسوا آيةَ الخلاقِ بل رجعت إلى اليهودِ بكم قُربى وأطباعُ
يا بائعِ الأرضِ لم تحفلِ بعاقبةٍ ولا تعلّمتَ أنَّ الخصمَ خداعُ
لقد جنيتَ على الأحفادِ ولاهفي وهم عبيدٌ وُخدَّامٌ وأتباعُ
وغرك الذهبُ اللماعُ تُحرزُهُ إن السرابَ كما تدرية لَماعُ
فكَّرَ بموتك في أرضٍ نشأت بها واتركَ لقبركَ أرضاً طولها باعُ

فلقد لجأ اليهود إلى شراء الأراضي الفلسطينية؛ ليكون لهم موضع قدم في فلسطين، وحتى يتسنى لهم إمضاء مخططاتهم في الحصول على فلسطين، وكان الشاعر متنبهاً لهذه المؤامرات؛ فأخذ الشاعر إبراهيم طوقان يحذر أمته من هذا الخطر الدايم.

الأبعاد التاريخية:

- **العنوان:** يشير العنوان إلى تلك الفترة التي عم فيها بيع الأراضي في فلسطين، ويخاطب الذين باعوا البلاد طمعاً بالمال، ويحذرهم من عواقب ذلك، وأن الوطن لا يقدر بالمال.

- **اليهود صيارفة، والفلسطينيون زراع:**

أعداؤنا منذُ كانوا صيارفةً ونحنُ منذُ هبطنا الأرضَ زُرَّاعُ

يشير الشاعر إلى أن اليهود منذ قديم الزمن يعملون بالربا، وليسوا بأصحاب أرض، وأن الفلسطينيين هم أصحاب الأرض الذين عرفوا بالزراعة منذ قديم الزمن؛ فالكنعانيون أجدادهم امتهنوا الزراعة.

- **الجنانية على الأبناء ببيع الأراضي:**

لقد جنيتَ على الأحفادِ ولاهفي وهم عبيدٌ وُخدَّامٌ وأتباعُ

ينبئ الشاعر عن المستقبل والمصير الذي ينتظر من يبيع الأراضي؛ فإنه لا بد أن يندم، ويصبح أبناؤه خدماً وعبيداً.

اشترؤا الأرضَ تشتريكم من الضيم⁽³⁾

حبذا لو يصومُ منا زعيمٌ مثلُ (عُندي) عسى يُفيدُ صيامُهُ
لا يصُمُ عن طعامه في فلسطين ن يموت الزعيمُ لولا طعامُهُ
ليصُمُ عن مبيعه الأرضَ يحفظُ بقعةً تستريحُ فيها عظامُهُ
بارك الله في حريصٍ على الأر ضٍ غيورٍ ينهى إليها اهتنامُهُ

1 - العودات، يعقوب، إبراهيم طوقان في وطنياته ووجدانياته، منشورات المكتبة الأهلية - بيروت 1965م، ص 22 و 23.

2 - ديوان طوقان: ص 292 و 293.

3 - ديوان طوقان: ص 295.

هم حماةُ البلادِ من كلِّ سوءٍ وهُمُ معقلُ الحمى ودِعامُهُ
 نهجوا منهجَ القويِّ وصفُوا لجهادٍ منصورَةً أعلامُهُ
 إنما غُدَّةُ الضعيفِ (احتجاجٌ) لم يُجاوِزْ حدَّ السطورِ احتدامُهُ
 كلُّ يومٍ حزبٌ وحُلْمٌ فحدَّثتْ عن ضِعيفٍ سألحهُ أعلامُهُ
 مغرمٌ بالبلادِ صَبَّ ولكنْ بسوى القولِ لا يفيضُ غرامُهُ
 بَطَلٌ إن علا المنابرَ كِرارٌ سريعٌ عند الفَعَالِ انهزامُهُ
 آزرُوا القائمينَ بالعملِ الصا لح إنَّ الأبِيَّ هذا مقامُهُ
 آزرُوهم بالمالِ فالأرضُ (صد دوقٌ) لمالِكِم بل قِوامُهُ
 اشتروا الأرضَ تشتريكم من الضي م وآتٍ مسودَّةَ أيامُهُ

"قفي عام 1932م أنذر (غاندي) قديس الوطنية الهندية بريطانيا بالصوم مدى الحياة، ما لم تغير سياستها الاستعمارية الغشوم في بلاده؛ فأخذ إبراهيم يوازن بين (زعيم) هناك يقول ويفعل... وبين (زعماء) هنا هم- في الواقع- قوالون غير فعالين... يخطبون طمعاً بأن تشير الصحافة إلى أسمائهم، وتوظفها بالثناء والتقريظ... وهم في الحقيقة أصل الداء، ورأس البلاء! وراح إبراهيم يقارن بين (زعيم) محض أمته قلبه، ومهرها حبه، وبين (زعماء) مهرجين يسلون بيع الوطن وتهويده؛ بشحناء وبغضاء طال مداها"⁽¹⁾.

وهنا يقارن الشاعر ما فعله (غاندي) من إخلاص لوطنه؛ بما يفعله بعض زعماء فلسطين من المؤامرة على الوطن، وبيع الأراضي، ويدعوهم للاقتداء بـ(غاندي)، وأن يصوموا عن بيع الأراضي؛ تأسياً بـ (غاندي) الذي صام أياماً طويلة؛ احتجاجاً على الظلم؛ ولينقي نفسه، إن شاعرنا لم يترك حادثة في زمانه إلا ووظفها في خدمة وطنه؛ لأن ذلك همه الأكبر.

- صندوق الأمة:

وهذا الصندوق الذي أنشأه الفلسطينيون الأباة؛ لإنقاذ الأراضي الفلسطينية من اليهود، ودعم الفلسطينيين الذين كانوا بحاجة للمال.

آزرُوا القائمينَ بالعملِ الصا لح إنَّ الأبِيَّ هذا مقامُهُ آزرُوهم بالمالِ

فالأرضُ (صندوقٌ) لمالِكِم بل قِوامُهُ

- معرفته بالتوراة:

كتب الشاعر اليهودي رؤوبين قصيدة بعنوان: (أنشودة النصر) يعبر فيها العرب بأصلهم من هاجر وأنها أم العرب (أم إسماعيل - عليه السلام-)؛ ويخر من ثورتهم، ويذكرهم أن هاجر كانت جارية عند سارة (أم الإسرائيليين)؛ فغضب طوقان، وكتب حينها لصديقه عمر فروخ؛ قائلاً: "وأراني سأجعل كل بيت من هذه القصيدة مأخوذاً عن مصدر تاريخي؛ بل من التوراة نفسها فهي تفيض بخبثهم"⁽²⁾، وبدل ذلك على سعة اطلاعه على التوراة.

هاجر أمنا ولود رؤوم لا حسود ولا عجوز عقيم

هاجر أمنا ومنها أبو العر ب، ومنها ذلك النبي الكريم

يوسف باعه أبوكم يهوذا إن حب الدينار فيكم قديم⁽³⁾

1 - العودات، يعقوب: إبراهيم طوقان في وطنياته ووجدانياته، منشورات المكتبة الأهلية - بيروت 1965م، ص 67 و68.

2 - فروخ، عمر: شاعران معاصران: إبراهيم طوقان وأبو القاسم الشابي، ص 76.

3 - المحاسني، زكي: إبراهيم طوقان شاعر الوطن المغصوب، ص 140 و141.

الخاتمة

الحمد لله أولاً وأخيراً، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، أما بعد.

فها نحن نودع الشاعر الفذ الذي عبر عن وجدان الأمة، الشاعر الداعي إلى المقاومة وجهاد الأعداء، إن شاعرنا قد ترك لنا وثيقة تاريخية، تتجلى هذه الوثيقة بتسطير الشاعر قضايا الأمة وأحزانها وآلامها؛ فهذه قصائده أكبر شاهد على ذلك.

وكما يذكر النقاد: أن طوقان فتح أفاقاً كبيرة أمام الشعراء، وخصوصاً الفلسطينيين، وأجمع بعض النقاد المعاصرين على أن إبراهيم طوقان أكبر شاعر أنجبته فلسطين حتى أواخر العقد الرابع من القرن العشرين⁽¹⁾، إن طوقان هو صاحب الشعر الخالد الذي ما زال حياً يرغم رحيل صاحبه؛ فمن منا لا يعرف نشيد (موطني)، أو (الثلاثاء الحمراء)، أو (الشهيد)، أو (الفدائي)...، وهذا والله هو الإبداع بحق؛ فكثير من الشعراء يكتبون شعراً، ولا يكتب لشعرهم البقاء والخلود.

أرجو أن أكون قد وفقت في هذا البحث؛ فقد بذلت جهدي، والكمال لله وحده؛ فما كان من توفيق؛ فمن الله، وما كان فيه نقص أو عيب؛ فهذا شأن الإنسان مفطور على النقص، وأرجوه - جل وعلا - أن يلهمني السداد والتوفيق.

ثبت المصادر والمراجع:

- 1- جرار، وليد: شاعران من جبل النار، ط1 شركة الشرق الأوسط للطباعة، (1954 م).
- 2- حجازي، سمير: مدخل إلى مناهج النقد الأدبي المعاصر، طبعة دار التوفيق، (2004م).
- 3- صدوق، راضي: موسوعة أعلام الشعر العربي الحديث، (2000م).
- 4- طه، المتوكل: حدائق إبراهيم، (2003).
- 5- طوقان، إبراهيم: ديوان إبراهيم طوقان مطبعة دار العودة - بيروت، (1988م).
- 6- طوقان، فدوى: أخي إبراهيم، طبعة الأعمال الكاملة، دار العودة - بيروت، (1988م).
- 7- عباس، إحسان: الشعر في فلسطين حتى عام 1967، الموسوعة الفلسطينية، القسم الثاني المجلد الرابع، طبعة بيروت، (1990م).
- 8- عبد الرحمن، نصرت: دراسات في مذاهب نقدية حديثة وأصولها الفكرية، مكتبة الأقصى، عمان، (1979م).
- 9- عبد الله، محمد حسن: إبراهيم طوقان حياته ودراسة فنية في شعره، الناشر: مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري، (2002م).
- 10- العودات، يعقوب: إبراهيم طوقان في وطنياته ووجدانياته، منشورات المكتبة الأهلية - بيروت (1965م).
- 11- فروخ، عمر: شاعران معاصران: طوقان والشابي، منشورات المكتبة العلمية - بيروت، ط1، (1954م).
- 12- فهمي، ماهر حسن: المذاهب النقدية، دار قطري ابن الفجاءة، قطر، (1983م).
- 13- المحاسني، زكي: إبراهيم طوقان في حياته وشعره، وشقاء بلاده بالصهيونية والاستعمار، وله عنوان آخر، إبراهيم طوقان شاعر الوطن المغصوب، طبعة دار العودة - بيروت، (1956م).
- 14- محمود، حسني: شعر المقاومة الفلسطينية دوره وواقعه في عهد الانتداب، الوكالة العربية للنشر والتوزيع، (1985م).
- 15- ابن منظور، مكرم محمد: لسان العرب، دار الحديث - القاهرة (2008).
- 16- الموسوعة الفلسطينية/ القسم الثاني المجلد الرابع/ ط/ بيروت، (1990م).
- 17- عباس، إحسان، نظرة في شعر إبراهيم طوقان، ط2 المؤسسة العربية للدراسات والنشر، مقدمة ديوانه، (1988م).
- 18- هلال، محمد غنيمي، الأدب المقارن، فكر سانت بوف، دار النهضة - القاهرة، ط9، (2008م).